جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة: الثانية

مادة: الادب الإسلامي

محاضرة: دراسة في شعر الحطيئة

مدرس المادة: م.م. زبيدة ماهر صالح

المحاضرة: الخامسة

١٤٤٦هـ ٢٠٢٥م

الحطيئة:

تبدو أهمية دراسة الحطيئة من خلال ثلاثة محاور: الأول: فني يعد فيه الحطيئة امتدادا لمدرسة فنية أو المجموعة من الشعراء الذين كانوا قبل الإسلام عنوا بصياغة أشعارهم وتهذيبها وتنقيتها وتنقيحها واجادة نظمها لغة وأسلوبا ومعاني . فهو امتداد لمذهب أوس بن حجر، وبشامة بن الغدير، وزهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير. الثاني: ما عرف عن الحطيئة من ميله إلى الهجاء وتكسبه به. الثالث: تنقله بين القبائل مدعيا النسب يمدح هذه القبيلة إن رضي عنها، ويهجوها أن تنقل بنسبه الى قبيلة اخرى .

أما المحور الأول فلن نقف عنده مادام ممثلا لاتجاه فني عرف في عصر ماقبل الإسلام، ودرس في حينها وأما المحوران الآخران فلابد أن نبدأ بمناقشتهما وتحليلهما من خلال عرض أقوال العلماء والنقاد والمحدثين في هذا الشاعر. لقد وصف الأصمعي الحطيئة فقال: كان الحطيئة جشعا سؤولاً ملحفا دنيء النفس، كثير الشر قليل الخير، بخيلا، قبيح المنظر رث الهيئة مغموز النسب فاسد الدين).

وفي رواية أخرى الاصمعي شعراً أنشد بين يديه، فقال: (افسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع) . وتحدث عنه أبو الفرج الأصفهاني، وذكر انه كان من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم .... ثم أضاف واصفا أخلاقه وصفاته المشينة بقوله : وكان ذا شر وسفه، ونسبه متدافع بين القبائل، وكان ينتمي الى كل واحدة منها اذا غضب إلى الأخرى. هذه نماذج لبعض الروايات القديمة، وقد تابعهم المحدثون في ذلك مع وجود من اشار الى مبالغة القدماء في وصفهم للحطيئة. أما ناشر الديوان ومحققه فقد دافع في أكثر من موضع في مقدمة الديوان التي درس فيها حياة الحطيئة وأدبه فقال : (إن الحطيئة رغم أقوال المؤرخين القدامي لم يكن يخلو من صفات أقل ما يقال فيها إنها لا تخرج من إطار الإنسانية العام الذي كاد ينتزعه منه المؤرخون الأقدمون انتزاعا) . ونبدأ بأول رسم رسمه القدماء وبعض المحدثين، وهو وصفهم الجشعه وطمعه، وتنقله بين القبائل يمدح هذه، ويهجو تلك، ثم ينتقل هاجيا من كان مدحه دون أن يستشعر بشيء من الوفاء لممدوحيه السابقين، ولا يعتوره خجل من تراجعه عن مواقفه السابقة، وتذبذبه بين المدح والهجاء. ويعلل الدكتور شوقي ضيف مبالغة القدماء والمحدثين في تشويه صورة الحطيئة، وذم مواقفه في هجاء الناس بأن حادثة الزبرقان هي التي شوهته أما محقق الديوان فانه لم ينظر الى هذه الحادثة على أنها ليست دليل دناءة الحطيئة فحسب بل نراه يقول : (إن الحطيئة لم يذنب بشأن الزبرقان، وان الحادثة في غير حاجة الى هذا التهويل.

ولابد إن نعود هنا إلى حادثة الحطيئة مع الزبرقان لنتتبع مختلف الروايات التي أشارت إليها، ونعرف ما إذا كان الحطيئة قد أساء الأدب أو أظهر جشعا ودناءة الممدوح سابق له . وبغض النظر عن الخلاف الذي ورد في الروايات المتعددة الذي يتعلق بأمور جانبية تخص الحادثة المذكورة بأن الحطيئة التقى بالزبرقان، وسأله الأخير عن وجهته فعلم انه يريد العراق – وكان آنذاك في المدينة – فأخبره الزبرقان بأنه إذا قبل جواره كفاه الحاجة طول عمره، وأرسل معه كتابا إلى زوجته، وقيل إلى أمه في العراق لتكرمه، وانها فعلا أكرمته وأحسنت وفادته، إلا أن ذلك أغاض بني انف الناقة لأنهم حسدوا الزبرقان على جواره لشاعر مشهور مثل الحطيئة، وكانت بينهما منافسة وخصام فعملوا على التقرب من الحطيئة ليتحول إليهم، مصورين له الأمر بان زوج الزبرقان لم تحسن ضيافته، ولم تعطه حق قدره، فكان يجيبهم (لست بحامل على الرجل ذنب غيره، فإن تركتُ وجفيت، تحولت إليكم، فأطعموه ووعدوه وعدا عظيما) . وقيل إن ابنة الحطيئة مليكة كانت جميلة، وإن امراة الزبرقان كرهت مكانها فظهرت لهم منها جفوة على حد تعبير ابن سلام إلا أن أبا الفرج الأصفهاني يروي المقطع الأخير من القصة منسوبا إلى ابن سلام ١٢١أيضا بأن الحطيئة حين لم يجب بني انف الناقة على طلبهم دسوا إلى هنيدة زوجة الزبرقان أن زوجها يريد ان يتزوج ابنة الحطيئة مليكة، وكانت جميلة كاملة، فظهرت. للحطيئة جفوة وهي في ذلك تداريه وأخيرا نجح بنو أنف الناقة في احتوائهم الحطيئة، وأخذه إلى جوارهم، وأرادوا تحريضه على هجاء الزبرقان فقال لهم : لست بهاجيه ولا ذنب له فيما صنعت امرأته، ولكني ممتدحكم، وذاكر ما أنتم له أهل. وهكذا يحاول الحطيئة أن يتهرب من هجاء الزبرقان متعللا بالعلة السابقة نفسها في أن لا ذنب للرجل فيما جنته امرأته، إلا أن الزبرقان يرسل إلى رجل من بني النمر بن قاسط ليهجو بغيضا، وفي هجائه لهم يعرض بالحطيئة وأن بني انف الناقة لا شرف قديم لهم ولا حديث سوى أن الحطيئة نزل فيهم وامتدحهم. وحين يبلغ الخبر الحطيئة لا يبادر إلى هجاء الزبرقان أو شتمه، بل نراه يعاتبه عتابا رقيقا لا شتيمة فيه، فيقول :

ألم أك نائيا فدعوتمونـــــي فجاء بي المواعد والدعاء

فالحطيئة هنا لا يهجو الزبرقان، ولكنه يذكره بجفاء زوجته له، وتباطؤها عنه ثلاثة أيام صور فيها حاله في انتظار رسولها، وأمله في معروفها، وكيف انه كان يؤخر العشاء إلى طلوع سهيل أو الشعرى – وهما يطلعان في آخر الليل أو في النصف – ثم انه صرح بأنه ماهجا الزبرقان لأن الذي بينهما هو المودة والإخاء، فهو مسلم ربطته مع آل الزبرقان رابطة الجوار، وما تحمله من مؤاخاة ومودة. أما ما قاله في مديح آل بغيض، فهو ليس شتيمة للزبرقان، ولا نيلا لعرضه، إنما هو مديح للقوم مقابل إكرامهم ورعايتهم له ولأهله. هذه قصة الحطيئة

مع الزبرقان مجملة، وهي لا تدل مطلقا على سوء أخلاقه أو لوم طبعه، لأنه لم يطعن الزبرقان، ولم يهجه حتى بعد انتقاله إلى جوار آل بغيض وإكرامهم له، وانه لو كان طماعا دنيئا لاستجاب لآل بغيض منذ أن أغروه بالمال والجاه ولأعانهم على هجاء الزبرقان . لم يتسرع الحطيئة في هجاء الرجل أو ذمه. وأكبر دليل على ذلك أن الزبرقان نفسه طالب بني بغيض – في إحدى الروايات – أن يعيدوا إليه جاره الحطيئة، ولما كادت الحرب أن تقوم بين الحيين اشتكى الزبرقان آل بغيض عند الخليفة عمر بن الخطاب له فحكم الخليفة بأن يخرج الحطيئة حتى يقام في موضع خال بين الحيين، ويخلى سبيله، فيكون جار أيهما اختار، ففعل ذلك فاختار الحطيئة بني أنف الناقة ، وواضح ما في هذه الرواية من سمات الوضع والزيادة التي يبعدها عن الحقيقة رسمها لمشهد وضع الحطيئة في مكان بين الحيين، ليختار بنفسه دون ضغوط، وكأنه حيوان أو بهيمة، لا تستطيع الكلام، او التفاهم، فتوضع في مكان ما، لتختار أي مرعى تسرح فيه . أقول مع هذه اللمحات المضافة إلى القصة فإنها دليل على أن الحطيئة لم يكن قليل الوفاء أو عديمه، ولو كان كذلك لما طالب الزبرقان بإعادته إليه، وإنما نراه يشتكي في هذه الرواية، لأنه يعلم حق العلم بأن آل بغيض هم الذين حملوه على ترك جواره والانتقال الى جوارهم كسبا للشهرة التي قد تأتيهم من مديح الحطيئة لهم وتتم الرواية الخبر من أن الزبرقان سأل الحطيئة بعد أن اختار آل بغيض : يا أبا مليكة أفارقت جواري عن سخط أو ذم ؟ قال : لا وحين يشتد الأمر بين الزبرقان وآل بغيض، ويضطر الحطيئة الى هجاء الزبرقان نجده يقدم الأعذار تلو الأعذار في مدائحه الأولى لآل بغيض، بأنهم هم الذين آووه وأطعموه وأكرموه بعد أن عانى من أذى الفقر والحاجة والجوع. وهو يصور حاله حين تركته زوجة الزبرقان ينتظر أياما قلقا ذليلا جائعا، حتى أوى إلى آل بغيض فاجبروا كسره وأكرموه بعد ذل ومهانة، وأحسنوا إليه بعد أن كان لا يعرف الشبع. يقول بعد أبيات في مديح آل بغيض مخاطبا الزبرقان:

قروا جارك العيمان لما تركته وقلص عن برد الشراب مشافره

سناما ومحضًا أنبت اللحم فاكتست عظام امرئ ما كان يشبع طائره

ومع ما في الشطر الأخير من جمال الرمز والتعميم في المعاني اختلف في تفسيره، فقال أبو عمرو بن العلاء : يزجره من أن يظلم أحدا . وقال الأصمعي: على رأسه تقوى من الله ان يظلم الناس . وقال ابن الأعرابي : عني بالزاجر شيبه وكبر سنه. وقيل: بان الزاجر عمر بن الخطاب الله يمنعه خوفه منه من ظلم الناس فكيف يظلم الزبرقانللزبرقان ومع واكتفائه بمثل هذا الاعتذار الجميل . أما في قصائده التي تلت هذه المرحلة في

تصريحه بالهجاء لآل الزبرقان، فأننا لا نجد سلاطة لسان كما وصفوا بها الحطيئة، ولا نجد فحشا ينكر إيراده في هجائه، ولا بذاءة كالتي ترد عن شعراء قالوا في الهجاء ابتداءاً بأوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى ثم حسان بن ثابت وغيره من شعراء المسلمين الذين افحشوا أحياناً في هجاء قريش أيام كفرها وفجورها. وفي هذا يقول الدكتور طه حسين: (ومن غريب الأمر انك لا تجد لهذه الشخصية المنكرة في شعر الحطيئة أثرا منكرا مثلها، فهم يقولون انه كان مسرفا في الهجاء حتى أنه هجا نفسه، وهجا أمه وأباه، ولكن هذا فيما نظن من غلو الرواة. وقد كان الحطيئة هجاءاً ولكن هجاءه أقل فحشا من هجاء استاذيه أوس وزهير فلهذين الشاعرين من الهجاء ما نستحيي أن نورده في هذا الكتاب. فأما هجاء الحطيئة، فهو ينال الناس من قبل منزلتهم الاجتماعية، وما كان العرب يحمدونه أو يكرهونه أما هجاؤه لأمه أو لأخواله، وتنقله في نسبه بين القبائل بشكل يظهر فيه أنه لا يثبت له قرار، ولا يمكنه الانتساب إلى واحدة منها فإنها من جملة أمور أخذت على الحطيئة ولابد أن نتحدث عنها سوية وصف أبو الفرح الاصفهاني الحطيئة بقوله (وكان ذا شر وسفه نسبه متدافع بين قبائل العرب، وكان ينتمي الى واحدة منها اذا غضب على الأخرى).ووصفه مرة اخرى بقوله : (وكانوا يقولون بأن الحطيئة اذا غضب على بني عبس يقول انا من بني ذهل، واذا غضب على بني ذهل قال : انا من عبس) وإذا عدنا إلى أخبار الحطيئة وعلاقته ببني عبس أو بني ذهل نجد أن نسبه كان متدافعا حقا بين القبيلتين، فهو لا يعرف له أبا على وجه الحقيقة، وإذا أراد معرفة ذلك بالاستفسار من أمه خلطت عليه الأمر، فيقول مصورا ذلك أجمل تصوير ذاكرا يأسه من معرفة أبيه :

تقول لي الضراء لست لواحد ولا اثنين فأنظر كيف شرك أولئكا

فالحطيئة إذن لم يكن ابنا اعتياديا لام برة عطوف بل هو ابن معذب يشعر بالمعاناة مماقال فيه، ولم يقصر عليه القول دون بقية أغراض الشعر الأخرى، وأبو الفرج الأصفهاني نفسه الذي روى الرواية السابقة يقول في وصف إجادة الحطيئة في كل فنون الشعر: (وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف في جميع فنون الشعر في المديح والهجاء والفخر والنسب مجيد في ذلك أجمع) وعلى هذا فان البيتين السابقين لا يدلان على بذاءة لسانه، بل هما دليلان على روح سخرية أصيلة في نفس الحطيئة، فهو من أولئك الناس الذين أحسوا ببشاعة خلقهم، فلم ينطووا على نفوسهم، ولم ينزووا عن العالم، بل حاول أن يتغلب على هذه العاهة، ليبدو أمام الناس غير مبال بها فهجاء الحطيئة لنفسه ووصفه لشكله يجب أن لا يؤخذ مأخذ الجد. أما هجاؤه لزوجته فلا يمكن أن يحمل إلا على محمل الهزل والسخرية أيضا، لأن علاقته بزوجته كانت علاقة طيبة، وأن عاطفة جميلة تربط بينهما . ذكروا من هجائه لها قوله :

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى بيت قعيدته لكـاع

أقول أن هجاءه لزوجه لابد أن يحمل على الدعابة والظرف، لأن أخباره الأخرى تبين تعلقه بأهله، زوجه وبناته. فقد ذكر أبو عبيدة بان الحطيئة أراد سفرا فأتته امرأته، وقد قدمت راحلته ليركب فقالت : أذكر تحنننا إليك وشوقنا فقال : حطوا، لا رحلت أبدا. واذكر بناتك إنهن صغار ونجد أروع الأشعار الإنسانية في شعر الحطيئة الذي يصور فيه أبناءه الصغار وفقرهم، وحاجتهم إلى المال . وقصيدته المشهورة التي وجهها إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو في حبسه بعد أن استعدى عليه الزبرقان، هذه القصيدة خير انموذج على إنسانية الحطيئة في علاقاته بأهله وأبنائه . فهو يستعطف قلب الخليفة بتصويره لأبنائه الصغار الذين ينتظرونه، ليعيلهم ويسد رمقهم فيقول:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر